



نظرية المعرفة عند مصطفى محمود دراسة تحليلية

إعداد

أ.د / حنان أحمد رضوان
مدرس أصول التربية
كلية التربية – جامعة عين شمس

أ.د / صلاح السيد عبده رمضان
أستاذ أصول التربية
كلية التربية – جامعة بنها

شيماء إبراهيم أحمد الليثي

قضية الدراسة:

لا نستطيع أن ننكر أن طبيعة الإنسان والمعرفة لهما من الأهمية القصوى في توجيه العقل نحو تربية سليمة للإنسان، إلا أن كل ذلك لا يتضح إلا بوضوح نظرية محددة ألا وهي نظرية المعرفة، فالمعرفة هي الوسيلة التي لا غنى عنها للتربية، أو كما يسميها البعض" وسيلة التربية" [١]؛ فالمعرفة تظهر أهميتها في التطبيقات التربوية، وخصوصاً أن المعرفة تتعامل مع الطبيعة الإنسانية من "عقل وجسد وروح " والتي تعنى أساساً بموضوع لا يقل أهمية عن موضوع المعرفة آلا وهو العلم[٢].

ويعتبر مبحث المعرفة[٣] الأبستمولوجي إلى جانب مبحثي الوجود والقيم الأنطولوجي من أهم مباحث الفلسفة[٤]، ذلك أن نظرية المعرفة " Gnoseologie" تختص بالبحث في إمكانية قيام معرفة ما عن الوجود بمختلف أشكاله ومظاهره، حيث يبدأ المبحث الأول بالسؤال عن كيفية المعرفة " كيف أعلم" ؟ ويبدأ المبحث الثاني بالسؤال ماذا أعلم؟ فالأول كان وضع نظرية في المعرفة، والثاني لوضع نظرية في الوجود[٥]. لذا فقد توجه بعض المحدثين إلى التوحيد بين الأنطولوجيا والأبستمولوجيا[٦]، بهدف الكشف عن الحقيقة، ولم تتجه عنايتهم إلي البحث عن صدق المعرفة وحدود إمكانياتها، فقد وضعوا ثقتهم في قدرة العقل الإنساني على المعرفة إلى أن جاء السوفسطائيون فكانوا أول من وجهوا الأنظار إلى مباحث المعرفة وإمكانياتها[٧].

وإذا كانت المعرفة ممكنة، فما أدواتها، وما حدودها؟ وما طبيعتها؟ هل ذات طبيعة واقعية أم ذات طبيعة مثالية ؟ ومن منطلق تلك التساؤلات سوف نبحث المعرفة عند مصطفى محمود بشكل متكامل المعرفة من حيث علاقتها بالنفس، وذلك لما للنفس من دوراً أساسياً في المعرفة، وكذلك نظرة الدين للمعرفة ، حيث تعد نظرة الدين أبعد وأشمل[٨].

وعليه فقد اهتم مفكرنا بقضية الطبيعة والانسان في الفلسفة الإسلامية مما يدخل أو يمهد لنظرية المعرفة الإسلامية[٩]، حيث اهتم مصطفى محمود اهتماماً كبيراً بقضية المعرفة. وذلك هو الباب الأول لاكتشاف عالم مصطفى محمود، أما الباب الثانى فهو باب الإنسان أو الأدب والفن، وهما المداران اللذان يدور فى فلكهما أدب مصطفى محمود كما دار فيهما فكر مصطفى محمود .. حيث اتخذ من الوعى أداة للمعرفة.

وتحاول الدراسة الحالية أن تكمل ما انطلق منه مصطفى محمود حيث الإنسان كموضوع للمعرفة، فى أدبه وكتاباته سواء الفلسفى منها على مستوى التفكير أو الادبى على مستوى التعبير .. وهو – كما يقول النقاد – لم ينطلق مصطفى محمود انطلاقة أى كاتب تقليدى يقول ما عنده ثم يستدير ليقول ما عند الأخرين • وإنما انطلق بفنيته الهائلة التى جمع فيها بين إحساس الأديب وإدراك الفيلسوف. ومزج هذين فيه عمق الفكرة ودفء العبارة، فيه البصر الذى روحى بالبصيرة. والمادى الذى يؤدى إلى المعنوى، والرؤية التى تلتقى بالرؤيا كأروع ما يكون اللقاء. فهو يتعاطى الأشياء بعقله. ثم يعيها بوجدانه. ثم يجسدها بكلمة فاذا هى مسرحية أو رواية أو قصة قصيرة .. ولذلك فإننا سوف نقوم بتحليل كتابات مصطفى محمود، بحيث يمكن من خلال كتاباته معرفة ما الأسس والمبادئ التي استند عليها كاتبنا في قضية المعرفة .

ومن هنا فإن الدراسة الحالية تحاول أن تؤكد على أن فن مصطفى محمود غير قابل للتمذهب، بمعنى أننا لا نستطيع أن ندرج المؤلف تحت مذهب أدبى معين أو نطلقه وراء فيلسوف بالذات .. فهو ابن حياة .. استطاع أن يفلسف حياته ويحيا فلسفته وأن يتخذ منها جميعا مادة لكتاباته فى الأدب والفن فى القصة القصيرة والرواية والدراما وأدب الرحلات[١٠].

ولا شك أن نظرة فيلسوفنا تكامليه تخلط الدين بالمعرفة، وهو ما يعلمه من أمور الدين والدنيا تفصيلاً، وما هو بسبيل علمه بوسائله المعرفية المتاحة، أو التى تتاح بالمحاولة الدائبه[١١]، ونحن بصدد البحث في ذلك من منطلق أن رأي كل فيلسوف في المعرفة يتأسس على مذهبه في النفس تأسيساً ذاتياً [١٢].

افتراضات الدراسة :

- أن هناك مجموعة من الكتب والمقالات خاصة بمصطفى محمود وتم تحليلها تحليلا دقيقا.
- أن هذه التحليلات تنطوي على مجموعة من الأسس والمبادئ التي يمكن الإستفادة منها وتطبيقها في واقعنا التربوي في خلال نظرية المعرفة .

أهداف الدراسة :

تستهدف الدراسة الحالية:

- اجراء تأصيل لنظرية المعرفة من خلال تحليل كتابات مصطفى محمود بحيث يمكن اشتقاق مجموعة من الأسس أو المنطلقات يمكنها أن تقدم أبعادا جديدة في الفكر التربوي الإسلامي.
- معرفة المقصود بنظرية المعرفة كما برزت في فكر مصطفى محمود.
- تحديد طبيعة ومنهج المعرفة كما تناولها مصطفى محمود في كتاباته .

منهج الدراسة:

طبيعة الدراسة تجعل المنهج الوصفي بإعتباره أكثر ملائمة لطبيعة الدراسة،، مع استخدام اسلوب تحليل المحتوى حيث تضمن اسلوب تحليل للفكرة، وذلك بالعمل على جمع الجوانب التي تتشابه مع بعضها عندما يعرض الكاتب الدكتور مصطفى محمود رؤيته من خلال عرضه الثري للأفكار والمعارف والقيم. وفيما يلي نتعرض لطبيعة المعرفة من خلال التمحيص والنقد.

مصطلح الدراسة :

المعرفة

تعني "مجموعة المعاني والمعتقدات والأحكام والمفاهيم والتصورات الفكرية التي تتكون لدى الإنسان نتيجة لمحاولاته المتكررة لفهم الظواهر والأشياء المحيطة به، وهي بهذا المعنى لا تقتصر على ظواهر من لون معين وإنما تتناول جميع ما يحيط بالإنسان وكل ما يتصل به".[١٣]

وتمثل المعرفة عند مصطفى محمود " مجموعة فكرية مركبة من إدراكات وذكريات وأحكام، وبتعريف أقصر هي أحكام وترابط أحكام"، وهذه الأحكام تقتضي علاقة بين العقل والموضوع أو الشيء المراد معرفته والحكم عليه .وتعرف أيضا بأنها " إدراك الشيء والقدرة على التأمل والفهم والتفكير، فبهذه المقومات يمكن للإنسان تكوين معارف" (١٤)

فعندما نقوم بدراسة مقاطع الرحلة المعرفية للإنسان نجد أنه يبدأ رحلته هذه بعد ظهوره على متن الأرض أو ما يعبر عنه بعالم الدنيا، فالإنسان يولد خالي الذهن من أي معرفة تذكر، ولكن خلو نفسه من المعرفة لا يمانع حركته المعرفية؛ وذلك لوجود خصلتين يتحلى بهما: **الأولى** أنه يميل بفطرته للتعرف على ما يحيط به من موجودات. و**الثانية** أن الله تبارك وتعالى قد زوده بجملة من القنوات التي يرتبط من خلالها بالخارج(١٥).

خطوات الدراسة وإجراءتها :

تمثلت الدراسة وإجراءتها في :

- استقصاء العوامل الكامنة وراء آراء مصطفى محمود عامة ، وعن المعرفة الإسلامية خاصة .
- تحديد المنهج الذي استند عليه مصطفى محمود في معالجته لقضية الدراسة، مع ابراز مصادر الفكر التي استقى منها أصول هذا المنهج .
- تحديد مفهوم المعرفة مع ابراز خصائص نظرية المعرفة كما تناولها مصطفى محمود.
- اشتقاق مجموعة من المبادئ والأسس مستمدة من ثقافتنا يمكن تطبيقها والإستفادة منها في مجال التربية .

الإطار النظري للدراسة

هذه الدراسة تتناول بنوع من التحليل قضية المعرفة كما عرضها مصطفى محمود من خلال مؤلفاته وكتبه التي شكلت آراؤه فيها ملمحاً بارزاً في منهجه الفكري. كما تنبثق كذلك أهمية الدراسة من أهمية المعرفة ذاتها، نظراً لما تكسبه المعرفة للمجتمع من خصائص وسمات

معينة تتمثل في العلم والإبداع والتطور والأسلوب الأمثل لحل المشكلات، فكلها تعد بمثابة نوع من الضبط الاجتماعي والتطور إذا اشترك أفراد المجتمع فى نفس السمات[١٦].

ولذلك فإننا نركز على رأي فيلسوفنا لنعرف دور المعرفة عنده ونبحث أيضا دور الحس والعقل في نظرية المعرفة لديه، ونُفصّل نظريته في العقل لما لها من دور هام على صعيد الفكر الفلسفي الإسلامي، وكذلك نبحث العلاقة بين المُدْرِك والمدرَك، أو بين الذات والموضوع، ثم ننتقل إلى المعرفة الإشراقية التي تتجلى فيها لديه النزعة الصوفيه بناءاً على نصوص وردت في بعض مؤلفاته . فالمعرفة كانت ولا تزال من أهم المسائل التربوية الأساسية في أي مجتمع من المجتمعات على الإطلاق، فهي التي تقف وراء كل ما يتخذ في التربية من اعمال – سواء كانت هذه الأعمال تتصل بفلسفة التربية الإسلامية أو بأهداف التربية الإسلامية[١٧].لذلك كان لابد من التعرف على امكانية المعرفة وطبيعتها عند مصطفى محمود .

إمكانية المعرفة وطبيعتها :

يرى مصطفى محمود تأييد الرأي القائل بإنعدام الآراء الفطرية، ويرى أن المعرفة مكتسبة، حيث أنه وجد ربه بالبحث عنه بعقله أي بالبحث في الكون ومعرفة أسراره وكشف حقائقه التي لا تتأتي إلا بالعلم والتعلم، وكلمته الأساسية " فاعلم أنه" لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ " واستغفر لذنبك وهل يفترق مؤمن عن كافر إلا بهذه المعرفة فعلى الأكثر لا ترى سوى إنسانيتك، وخير ما يؤيد ذلك قوله عن الطفل " فنفسه صحيفة بيضاء وأمه تنقشها كما تشاء" [١٨].

و يؤمن مصطفى محمود بأن المعرفة مكتسبة وتلك خصيصة تتميز بها الطبيعة الإنسانية في ديناميكيتها، وهي الرغبة في الإنطلاق ومعرفة ما في الكون، ومعرفة ما هو مجهول فالنفس البشرية دائما تتطلع إلى كشف أسرار الكون ومعرفة حقيقته، فطبيعة المعرفة كما يراها مصطفى محمود مكتسبة وليست فطرية، وهكذا تصبح المعرفة هي " الرغبة في اكتساب العلم والتشوق والإستطلاع وحب استكشاف الحقائق وكل ما يستميل النفس إلى العلم والبحث . ومن ثم يصبح الغرض من المعرفة ليس تعلم العلوم فقط وليس معرفة الكون، وإنما معرفة ذات الإنسان من

خلال معرفته بالكون لتحقق سعادته، وهذا ما أكد عليه أيضا قاسم أمين بأن المعرفة والحقيقة مكتسبة وكما ضالة الإنسان في العالم وعليه أن يسعى وراءها بلا قصور ولا تعب، فالحقيقة هي الكنز الذي أودع الله فيه كل آمال الإنسان.فالدين فى ذاته علم بالله والعلم بالله لا ينفصل عن العلم بمخلوقاته فالمعرفة بالصانع لا تنفصل عن المعرفة بصنعته .. بل إن كل معرفة منهما تؤيد الاخرى وتعضدها ولا تناقضها أو تنفيها .. فالكون كله بما يتجلى فيه من وحدة القوانين هو خير شاهد على وحدة الصانع .. فهو محل لقدراته وافعاله وصفاته .. والتاريخ هو المشيئة الالهية.. والتطور التكاملى فى الكون هو ذلك الكدح إلى الله صعدا مرتقى بعد مرتقى، ونحن نرى الله فى كل شيىء، وليس ذنبنا أنهم لا يرون الله فى أى شيىء .. وأن نظرتهم تقف عند حدود الميكرسكوب وشاشة الرادار .. وأنهم يقسمون كل معرفة إلى ألف جزء وجزء ثم يتيهون فى الأجزاء ولا يرون إلا الأجزاء(١٩).

ويرى مصطفى محمود أن الإنسان دائما يكتسب المعرفة عن طريق التربية والتعليم، وأنه لا يوجد بين أفكارنا ما هو فطري موروث وإنما كل معارفنا جاءت عن طريق الحواس، فأثرت في صفحة الذهن التي أتت إلى هذا العالم بيضاء خالية من أي نقش، فالمعرفة بالله عز وجل لا تتحقق إلا بتحصيل العلم، فكلما ازداد المرء تعلماً زادت معرفته.

ذلك لأن المعرفة هي وجود العلم وتحصيل ذلك العلم لا يأتي إلا بالتفكير والتدبير، ففيهما مركز المعرفة (٢٠)؛ ولذا فإن مفهوم المعرفة ليس مرادفاً لمفهوم العلم، فالمعرفة أوسع حدوداً ومدلولاً وأكثر شمولاً وامتداداً من العلم؛ ويفرق بعض الباحثين بين المعرفة والعلم بتعريفهم " العلم بأنه (المعرفة المصنفة) (٢١)،

وعليه فإن المعرفة الإنسانية تعد رحلة للعقل في مسراه، ومعراجه نحو إدراكه للحقيقة، وهي رحلة شائكة يتخبط فيها العقل، ويتوه الوجدان، وتدمى الأقدام، ويضل المسافر عبر قطار المعرفة يصطدم بالعديد من الأزقة المسدودة، قبل أن يهتدي إلى الطريق المستقيم(٢٢)، فالأصل في المعرفة هو الدهشة أو الإندهاش الذي يثير التساؤل والتأمل والتفكير، ويدعو إلى البحث

وأسلوب التعامل مع الواقع[٢٣]، ودور الأنبياء هنا أنهم اختصروا لنا الطريق وقدموا لنا الحقيقة كلها دفعة واحدة كما جاءتهم وحيًا، وهذا هو الفضل الإلهي الذي حفظنا من الضياع في شعاب عقلنا المضل [٢٤].

حدود المعرفة :

تدفع المعرفة إلى التساؤل حول كيفية إدراك الإنسان الوجود الذي يعيش فيه، وهل يعتبر الوجود صورة من الإدراك الذاتي للإنسان؟ أم أنه وجود مستقل عن الذات؟ ثم ما هي الأدوات التي يستخدمها الإنسان لإدراك الوجود[٢٥]، ومن خلال البحث في القضايا التي اهتم بها مصطفى محمود في مبحث المعرفة، تبين أنه يوجد عدد من المذاهب الفلسفية التي تبحث في نظرية المعرفة وكذلك تحدد حدودها ووسائل تحصيلها وهي :

المذهب الحسي أو التجريبي :

ترجع المعرفة إلى ما تمدنا به الحواس، بإعتبار أن العقل" صفحة بيضاء" ليس فيه إلا ما تنقله إليه حواسنا[٢٦]، فالحواس وحدها هى سبيل وصول المعلومات إلى الذهن[٢٧]

المذهب العقلي :

إن العقل بما من استعدادات أولية أو مبادئ قبلية هو وسيلتنا الوحيدة للمعرفة اليقينية ؛ فالحقيقة تدرك بالعقل لا بالحس وقد ذهب في هذا بعض الفلاسفة اليونان، فقالوا إن الحق يدرك بالعقل، أما الحواس خادعة ومضللة وإن حس كل شيء خاص به[٢٨].

المذهب الحدسي :

إن مذهب العارفين ليس مجرد معرفة حدسية فقط .. ولكنه همة واقتدار وكدح ومغالبة.. والنفس لا تستطيع أن تعشق إلا ما ترى ولا أن تتعلق إلا بما تشهد بصراً وسمعاً وحواساً، فالطريق الصحيح للمعرفة الجديرة بهذا الاسم هو الحدس[٢٩] .

فالحضارة المادية لم تقدم للإنسان إلا الموت وحياة تمضى سدى وتنتهى عبثا ..

أما الإسلام فقدم للإنسان الخلود وحياة تمضى لحكمة وتنتقل من طور الى طور وفقا لنواميس

ثابتة من العدل الالهى حيث لا يذهب أى عمل سدى ولو كان مثقال ذرة من خير أو شر ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾(٣٠) .

واليوم تصل الحضارة المادية إلى ذروة من القوة والعلم وتكتمل لها أدوات الفعل والتأثير من اعلام وكتب ومجلات فهى تغتال العقل والروح وتتحالف على الإنسان بخيلها ورجلها ولكنها رغم كل شيىء ضعيفة متهافتة واهية لأنها تغتال نفسها ضمن ما تغتال وتأكل كيانها وسوف تقتتل مع بعضها البعض وتتحارب ولا يبقى على الارض إلا الإسلام يقف كمنارة فى بحر لجى مظلم متلاطم الموج(٣١) .

وهناك مذهبين في تحديد قيمة و اتجاه المعرفة بين الشك واليقين في التوصل إلى الحقائق و هما **النزعة الوثوقية:** والتي تقول بإمكانية توصل الإنسان إلى معارف مطلقة، أي أن كل معرفة سواء أكانت عقلية أم حسية فهى صادقة على الإطلاق (٣٢).

النزعة النقدية أو النسبية: التي ترى أن المعرفة البشرية محدودة بالمعطيات الحسية، والتي يكون دور العقل فيها نسبي(٣٣).

وإستنتاجاً مما سبق نجد أن مصطفى محمود قد تناول قضية – إمكان المعرفة – بالدراسة من وجهه نظر فلسفية، حيث توصل إلى أن المعرفة اليقينية تنسب إذن للعلم، وأن الظن هو معرفة احتمالية لا تقوم بها عقيدة ولا يبنى عليها فكر. وبذلك تكون انقسمت المعلومات الوجودية الى قسمين : معلوم استأثر الله بعلمه، فهو الغيب، ومعلوم كشف لنا عنه، فهو الشهادة، وللشهادة كذلك مستويان : مستوى المعرفة الكاملة والتفصيلية، وهو ما علمنا من أمور الدين والدنيا تفصيلاً، وما نحن بسبيل علمه بوسائلنا المعرفية المتاحة، أو التى تتاح بالمحاولة الدائبه؛ ومستوى المعرفة الإجمالية، وهو ما أُخبرنا بوجوده من عوالم الملأ الأعلى، كالجن والملائكة، والجنة والنار والقيامة والحساب .. الخ .. الخ .. فنحن لا ندرى من ذلك كله سوى العناوين، لأن موضوعاته لا تخضع للشهود والمعاينة ، فقد احتجبت عنا بموجب أمر إلهي(٣٤) .وهذا يعني أن العقل في استطاعته معرفة الحقائق والتوصل إليها؛ وكذلك معرفة مؤمن بها ولا يمكن

التوصل إليها؛ إذن فالمعرفة يقينية، وبالعقل يتم اكتسابها، فالعقل إذن من أهم المصادر التي عن طريقها يُحصّل الإنسان معارفه، من منطلق أن الوعى أداة للمعرفة، والانسان موضوع لها(٣٥).

وبناءاً على ما سبق فإنه غير صحيح أن الحضارة الإسلامية وقفت عند النقل عن اليونان دون عطاء .. بدليل الاختلافات الجوهرية بين نتاج الحضارتين .. فالرياضيات اليونانية وقفت عند المتناهي بينما اعتمدت الرياضيات العربية على فكرة اللامتناهى كما أن أداة المعرفة عند اليونان كانت علم المنطق بينما كانت عند العرب هى العلم التجريبى، وكانت فلسفة اليونان فلسفة معرفة وعند الحرب فلسفة عمل وفعل .. ولم يكن للحتمية المأسوية اليونانية وجود فى المنظور الإسلامي المنفتح على المستقبل التواق للتغيير، وكانت النظرة الإسلامية نظرة جامعة بين العلم والحكمة ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾(٣٦)

فالمسلم ينظر إلى كل شيئ على أنه آيه فيها شواهد الحكمة والعناية والقدرة الإلهية بينما العلم فى الغرب مغلق على علموية وتكنوقراطية لا هدف لها سوى الكم والمزيد من الشراء والقوة والهيمنة، واليوم يعيد التاريخ نفسه فترى الإسلام الذى بدأ فى مجابهة مع الفرس والروم نراه اليوم فى مجابهة مع أمريكا .. وكما فعل فى الماضى .. نراه يقدم بمقابل هذا الفشل الحضاري تصورا راقيا للحياة.(٣٧)

فالإسلام يعلمنا أنه فى ضوء الإيمان بالله يبدو لكل شيىء حكمة ولكل حدث غاية خيره وإن خفيت .. ويشعر كل إنسان أن لعذابه معنى وغاية، وأن لديه القدرة على أن يعرف ما فى الكون من موجودات، بما فيها نفسه، حتى إذا عرف ذلك على حقيقته، أمكنه أن يوجه أعماله إلى ما يعود عليه بالنفع وكذلك يكون على معرفة و يقين أن لا شيىء يذهب سدى، وأن الحياة مشروع إلهى جميل وأن لكل إنسان دوراً منسجما مع الحركة الكونية الكلية .. وهو ما يعطى المؤمن إحساسا بالوحدة والإنتماء والإستمرار (٣٨) .

أ) أنـواع المعـرفـة :

وإذا كانت آراء الفلاسفة والعلماء قد اختلفوا فيما بينهم نحو مصادر المعرفة وطريقة اكتسابها فإن مصطفى محمود لا يتفق معهم في المذهب العقلي، وأيضا لا يتفق مع أصحاب

المذهب الحسي، وإنما كان مؤمناً إيماناً كامل بأن ما خلقت المعرفة إلا ليحس الإنسان بقيمه العلم في هذا الكون، وليقدر ما وهبه الله له في هذه الدنيا ...ألا وهو- العقل- ليعي به مراد الله لــه بأن يتحدي هذا العقل، ليكشف له عن أن هناك عوالم من وراء العقل، وأن مملكه الله هي مملكه بلا حدود وملك بلا نهايه.. فوراء العقل هناك اللامعقول ووراء الطبيعه هناك ما وراء الطبيعه.. ثم هناك ما لا عين رآت ولا أُذن سمعت ولا خطر علي قلب بشر(٣٩).

حيث أراد الله لــمصطفى محمود أن يعي ويقدر معرفة أخــرى، ألا وهــى المعرفــة الإشراقية التي تملك القلب والإحساس والوجدان حيث أكد أنه ليس للعقل سلطان عليها، ومثــال ذلك ما يقوله الله لعبده المقرب: " أليس إرسالي إليك العلوم من جهه قلبك إخراجاً لك من العموم إلى الخصوص؛ ألست إذا أمرتك بطرح ما أبديه لــك مــن علــوم ومعــارف غيــرة عليــك، ولأستخلصك لنفسي، هو إخراج لك من المعرفة إلي الإشهاد ومــن الخصــوص إلــى خاصــة الخصوص، لتكون لي كما أنا لك، لأكون موضع نظرك كما أنت موضع نظري، لــيس بينــي وبينك شيء، لا اسمي ولا اسمك ولا علومي ولا علومك؛ أودعني اسمك حتى ألقاك أنا بــه ولا تجعل بيني وبينك اسماً ولا علماً ولا معرفة فلحضرتي بنيتك لا للحجاب ... ففي حضــرتي لا يستطيعك شيء لأن معك سلطاني وقوتي ولأنك تليني وكل شيء مما أبديه يأتي بعدك"(٤٠).

ومن خلال استعراضنا لأنواع للمعرفة عند مصطفى محمود نستنتج مما سبق أنه يوجد لديه ثلاثة أنواع : المعرفة الحسية، والمعرفة العقلية، والمعرفة الذوقية أو الإشراقية " الصــوفية "، وهذا التقسيم لا يعني أن هناك انفصالاً بينهما، بل هى متصله ويكمل بعضها بعضــاً، علــى الأقل فيما يخص النوعين الأولين، ولذا فإن كل قسم يشكل درجة من درجات الإرتقاء في ســلم المعرفة، وموقف عند هؤلاء الفلاسفة قديماً، ولكنها بقيت بقوة حتى العصر الحديث، وإن إتخذت شكلاً واطاراً جديداً عند هذا الفيلسوف أو ذاك . فما هو موقف مصطفى محمود بينها؟ وللإجابه على كل ذلك سينصب حديثنا تفصيلياً على تلك المناهج......

١- المعرفة الحسية :

تعد المعرفة الحسية هي أول درجة في سلم المعرفة عند مصطفى محمود، وفيها يبدأ الإنسان بالتعامل مع العالم الخارجي محاولاً إدراكه، فتحصيل المعارف للإنسان يكون من جهه الحواس . حيث يرى أن المعرفة الحسية ضرورية كالمعرفة العقلية، ولا غنى للعقل عنها، لأن الحواس هي المصادر الأولية التي تمنح النفس المعرفة [٤١].

ولذلك فإن مصطفى محمود يؤكد على أن الحس الغيبي هو أمر جوهري في الدين.. بل هو جوهر الدين كله.. ولهذا جعله الله أول صفات المتقين.. قال تعالى : ﴿ الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٤٢]، فجعل الإيمان بالغيب مقدما علي الصلاة وعلي الإنفاق.. وذلك لأن الغيب هو جوهر الدين..(فالله، والآخرة، والحساب، والجنة، والنار، والملائكة، والجن، والسموات السبع، والعرش، والكرسي، وما بعد الموت، وما قبل الميلاد، والقيامة، ومعظم مشاهد القرآن العظيمة..) كلها غيبيات وهذه الغيبيات هي الطاقة الحسية التي تشحن القلب وتثير العقل [٤٣].

ومما سبق تتضح المعرفة الحسية كما وصفها مصطفى محمود من خلال بضع نقاط كالاتي:

- الحواس مصدرها الأول إحساس مستمر بالحضور، وبها نتعرف على الماضي والحاضر، فالتذكر يعني ماضياً والتوقع يكون مستقبلاً .
- الفواصل بين الماضي والحاضر والمستقبل فواصل وهمية، لأن اللحظات الثلاث يتداخل بعضها في بعض كما يتداخل الليل والنهار عند الأفق .. والذي يقوم بتعين اللحظة في الشعور هو احساسنا وانتباهنا .
- كل ما نراه ونتصوره ما هو إلا خيالات مترجمة لا وجود لها في الأصل، مجرد صور رمزية للمؤثرات المختلفة صورها جهازنا العصبي بأدواته الحسية المحدودة [٤٤].
- ينقسم الإحساس إلي زمن خارجي زمن الساعات والمنبهات زمن كاذب خداع لأنه يساوي بين اللحظات ويجعلها مجرد أرقام على مينا، الساعه واحدة.. اثنين.. ثلاثة..

مجرد حركة العقرب، إنه ليس زماناً ولكنه أوضاع مختلفة في المكان؛ أما الزمن الحقيقي فهو داخلنا، وهو اضطراب دائم لا تتساوى فيه لحظة بأخرى .. لحظة صغيرة .. ولحظة كبيرة .. ولحظة تافهه [٤٥].

- إن الزمن الخارجي نراه ونعرفه بالعقل وندركه بالتحليل والقياس والحساب ونعبر عنه بواسطة الأرقام، وندرك الزمن الداخلي مباشرة وبدون واسطة.. على شكل مكاشفة داخليه لكياننا؛ لذلك نقول عن الزمن الداخلي إنه الزمن الحقيقي، لأن الحقيقة تطالعنا فيه عارية بدون وساطة وبدون رموز، ولكن لا نعيش حياتنا كلها في الزمن الحقيقي لاننا لا نعيش في نفوسنا طول الوقت، وإنما نعيش في مجتمع.. نخرج ونختلط، ولهذا لا نجد مفر من الخضوع للزمن الآخر.. زمن الساعات فنتقيد بالمواعيد ونرتبط بالأمكنه.
- إن الإحساس يرتكز في الذات أو النفس وعليه فإن مصطفى محمود قسم الذات إلي (ذات سطحية ثرثارة – ذات تافهه جامدة – و ذات عميقة) ولذلك فإن المعرفة الحسية هي الدرجة الأولى في سلم المعرفة، والمقدمة الضرورية للمعرفة العقلية، وعليه فإن الإنسان يبدأ في التعرف على الأشياء من خلال الحواس الخمس السمع والبصر واللمس[٤٦].
- أن الحواس هي أدوات يتم من خلالها اكتساب وتحصيل العلوم، وذلك لأنها منوطة بتشكيل صورتنا عن العالم من حولنا من أفكار تتشكل وفق وقائع تمت ملاحظتها، فتكتسب المعرفة الحسية عندما نرى ونسمع ..
- قسموا الحواس بشكل عام إلى قسمين حواس ظاهرة وحواس باطنة حيث ركزوا على أن الإدراك الحيواني أما في الظاهر وإما في الباطن، والإدراك الظاهر هو بالحواس الخمس التي هي المشاعر، والإدراك الباطن للوهم .
- أن العقل لا ينموا إلا بالإعتماد على ما يصله من معلومات تأتيه عن طريق الحواس، ولذلك فإن الإنسان لا يستغني بأي حال من الأحوال عن العقل والحواس في تحصيل المعرفة.

وقد أكد مصطفى محمود في أن الحواس أساس العلم المادي، حيث اعتبر أن " قوة الحس ميدانها الطبيعة، بل الظاهر المحس من الطبيعة"، إن ميدانها الألوان، والأصوات، والروائح، والطعوم فميدانها الإحساس الجسماني في الجسم البشري، وفي خارجه، وهو ميدانها في الحدودالتي رسمها الله – (ﷻ لها ، ولذلك أطلق مصطفى محمود على المعرفة الحسية بالمعرفة المادية، ويرى أن هذا هو ميدانها الذي ينبغي ألا نتعداه " فالسمع والبصر هما أساس العلم المادي علم التجربة والملاحظة.

٢- المعرفة العقلية :

لا تقتصر المعرفة على الحواس وحدها كما أكد مصطفى محمود وإلا كانت المعرفة قاصرة، وإذا كان لابد للمعرفة أن تنتقل إلى مستوى أعلى فلا يوجد أمامها إلا العقل لتنتقل من خلاله، لتصبح المعرفة آنذاك معرفة عقلية، حيث تنطبع صورة المحسوسات في الحواس فتحصل المعرفة، فإذا لم يكن هناك طعام فلا ندرك الطعم، وإذا لم يكن هناك شمس فلا ندرك الألوان، وإذا لم تكن هناك موجات في الهواء فلا ندرك الأصوات ... وظهر ذلك جلياً حينما أكد مصطفى محمود على أن هذا النوع من الإحساس يشبه إحساسنا بالحركة، حينما نحرك زراعنا فنحس أننا نحركها إلى فوق بدون حاجه إلى أن نراها، لأننا نحس بهذه الحركة من الداخل مباشرة بدون وساطة الرؤية؛ بينما يحتاج الذي يشاهدنا من الخارج أن يرى حركات ذراعنا بعينيه ويتابعها ويحللها بعقله، ليقول إننا نحرك ذراعنا إلى فوق ... وهذا هو تطور المعرفة الحسية عن طريق الإدراك إلى معرفة عقلية وذلك عن طريق العلم الذي هو أساس المعرفة.[٤٧]

ويبين الإسلام أن دور العقل كأداه للمعرفة هو إدراك الحقائق وإحكام العلاقات بين الإنسان وبين الحقائق التي يواجهها عن طريق المعرفة التي تبدأ بالإدراك الحسي ثم يكمله الإدراك العقلي ويتضح ذلك في قوله تعالي : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[٤٨] وتشير هذه الآيات إلى أن الإنسان موهوب بالملكة التي تجعل له القدرة على وضع أسماء للأشياء .. أي أنه

يكوّن لتصورات لها وتكوين هذه التصورات معناه إدراكها وفهمهـا، فالمعرفـة الإنسـانية إذن معرفة قائمه على الإدراكية.وبفضل هذه المعرفة الإدراكية، يدرك الإنسان ما هو قابل للملاحظة من الحقيقة.

ويتضح دور العقل أيضا كأداه من أدوات المعرفة متلازماً مع الحس في تحصيلها فـي قوله ﴿وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٤٩)، وفي تفسير الآية وبيان دور العقل المعرفي نرى أن الله سبحانه وتعالى جعل هـذه الأشـياء ﴿السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ آلات نحصل بها العلم والمعرفة و نحس بمشاعرنا جزيئات الأشـياء ونـدركها بأفئدتنا ولننتبه لما بينها من المشاركات والمباينات بتكرار الإحساس فيحصل لنا علـوم بديهيـة نتمكن من النظر فيها لتحصيل العلوم الكسبية وذلك وصف دقيق لعمليه الادراك، ولقيمة التكامل بين الإدراك الحسي والإدراك العقلي للحقائق، فحين تقرع المنبهات الحسية حواس الإنسان ينتقل أثر هذه التنبيهات إلى العقل حيث يقوم بدوره بتأويل هذه الإحساسات تأويلاً يزودنا بمعلومـات ومعارف عما حولنا، أي يحول العقل المدركات الحسية التي تحمل إليه الحواس إلـى صـورة ذهنية يتم التفكير من خلالها وقد ربط القرآن الكريم بين الحواس والعقل في عدد غير قليل مـن آيات الكتاب الكريم ولعل الربط بينهما يوحي بالتكامل بينهما كوسائل للمعرفة.

ويؤكد مصطفى محمود على ذلك بقوله أنه مهما كثرت معارف الإنسان فإنها لا تمـلأ كل فكره، وذلك لأن بعد كل اكتشاف يحققه الإنسان عن طريق العلم يبحث عن اكتشاف آخـر، وفي نهاية كل مسأله يحلها تظهر مسأله جديدة تطالبه بحلها، الأن وغداً يشتغل عقـل الإنسـان بالعلم، أي بمعرفة الحوادث الثابته، ولا يمنعه ذلك من التفكر في المجهول الذي يحيط به من كل طرف؛ فالعلم عندنا وسائله الحواس والإستقراء والتحليل العقلي (٥٠).

ولذلك فإن من يستخدم الحواس فقط كالذي يعبث باللامعقول، ولكن الذين أوتو الأبصار يعرفون أنه سيكون لها دور مكمل، لأن كل سطر في ملحمة الوجود له معنى، المهم أن نعرف كيف نقرأ بالعقول والبصائر، لا بالعيون فقط؛ وكيف نرى الله في سجل أفعاله؟ وكيف نرى أثر يديه على مخلوقاته؟ وكيف نعرف ما وراء الظاهر المبتذل للحوادث؟ وكيـف نفـض الشـفرة

السرية التي كتب بها الله كتاب الأقدار، كل هذه أمثله لرؤية العقول والبصائر والأفهام، وهذا حظ أولى الألباب من رؤية الله بالعقل...وهي رؤية آثاره واستشفاف حكمته بالفهم عنه[٥١] .

فكما يتلقى العلماء الإلهام من العقل الكلى من برزخ القوانين العليا التى سخرها الله لتدير شئون الكون لذا فإن كل عقل يتلقى حسب قدرة إستيعابه ومستواه، ولكل مجتهد نصيب؛ ويؤكد مصطفى محمود على ذلك بقوله إن كل ثمار المعرفة متاحة لمن يجتهد فى فهمها، والكرم الإلهى لا يضن على مجتهد[٥٢]، غير أن من وسائل العقل أيضاً التلقي من القلب والإستمداد من الله .. فالله هو المستمد النهائي لجميع الحقائق، وذلك هو العلم الإشراقي. ولذلك كانت العبادة والطاعة والإستقامة من وسائل العلم بل هي الوسائل الوحيدة للتعرف على علوم الغيب المحجوبة، ويقول الله في حديثة القدسي ﴿مَنْ عَمِلَ بِما عَلِمَ أَوْرَثَهُ الله عِلْمَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾[٥٣]، فطاعة الله والتزام منهجه وسيلة إلى مزيد من العلم وهذا تأسيس على الحقيقة الأولى أن العلم كله من الله، ولهذا كانت العلاقة وثيقة بين العلم والتقوى، فهما دليل القلب إلى الله[٥٤].والعقل بما فيه من معرفة بالله وعلم، فإنه يسوق قلبك إلى الله[٥٥].

والعقل الذي قصده مصطفى محمود هو"عقل النفس عن الهوى، وفعله حسن التمييز، وضده الهوى"[٥٦]، وبالعقل يستطيع المرء أن يتعرف على ما يضره وينفعه، وبه يعرف أمور الدين والدنيا، فالعقل مدبر وآمر وزاجر ومميز ودليل وبرهان، وبه يدرك صنع الله وقدرته ويعرف جواهر الأمور من الدين والدنيا، فالله ليس فوق الجدل، وليس فوق العقل، وليس فوق الواقع، إن الله هو العقل وهو الواقع وهو مجموع القوى الكونية التي تعمل لخيرنا في كل وقت، وهي قوى تقبل المراجعة والتفكير والبحث والتطور[٥٧]. ولذلك فإن العلم لا يخجل من مناقشة الوهم والخرافة، لأن المعرفة غير المحدودة قانونه، والتواضع خلقه، فالعقل لا يخشى اللامعقول، والإرادة لا تعرف المستحيل[٥٨] .

ومما سبق تتضح المعرفة العقلية كما وصفها مصطفى محمود من خلال بضع نقاط كالاتي:

- إن الغرض من المعرفة هو كشف الحقيقة والوصول إليها عن طريق العقل، وذلك لأن الحقيقة والمعرفة وجهان لعمله واحدة، لأن المعرفة الحقه معرفة خاصة بالحقيقة.
- إن الحق يدرك بالعقل أما الحواسه فغاشّة خادعة .

- إن الإنسان هو الكتاب الجامع والكون هو مجرد صفحات من هذا الكتاب أو سطور منه، فما الأرض والسماوات إلا صفحات من كتاب جامع هو الإنسان الذي يستطيع أن يجمعها جميعاً بالعقل .
- العاقل العليم من دعا الله أن ينير عقله ويهديه إليه شوقاً واختياراً لا قهراً واجباراً، فيكون مثل السادة والأشراف لا مثل العبيد حقراء الشأن الذين يصكون على أدمغتهم، وقد طبع على قلوبهم وغشى على أبصارهم فتصوروا أنفسهم من أهل الشطارة وهم من أهل الخسارة وتصوروا أنهم اختاروا، والحق أن شيطانهم هو الذي اختار لهم سوء القرار[٥٩].
- إن النظر العقلى هو سبيلنا بالرغم من أخطاء العقل وحدوده[٦٠]، فالأسلوب الموضوعى الهادىء الذى يتكلم بالأرقام والأحصاءات والتجربة هو الذى سوف يخلق لنا عقلية جديدة قائمه على الإدراك والفهم وهو سبيلنا الوحيد الى حل جميع مشاكلنا[٦١]
- إن البداهه والفطره تنفي أننا نعيش داخل حلم، فالعالم الخارجي موجود، وحواسنا تحيلنا دائما على شيء آخر خارجنا، ولكن هناك فجوة بيننا وبين هذا العالم، حواسنا لا تستطيع أن تراه على حقيقته، وإنما هي تترجمه جائما بلغة خاصة وذاتيه وبشرفة مختلفة .. هي الإدراك عن طريق العقل .
- هناك نسخة موضوعية من الحقيقة نحاول أن نغش منها على قدر الإمكان، هناك حقيقة خارجنا لا نستطيع أن ندركها ونتعامل معها ولا يحدث ذلك إلا عن طريق العقل [٦٢].

ويؤكد مصطفى محمود من خلال ما سبق بأنه " لا يجب أن نترك أنفسنا للفكر النظرى الخالص الذى يبدا أو ينتهى فى رأس صاحبه، ولكن نسعى دائما للفكر المخلوط بالعاطفة الممزوج بالوجدان والفكر الذى يخرج من العقل لا ليخاطب العقل، بل ليتلقفه الإحساس فيحيله الى صورة ترى، وكلمة تسمح، وحركة تدرك بالوعى والشعور[٦٣]؛ كما أكد أيضا : أنه يجب تربية العقل على التفكير؛ وجعل التفكير منهج، وذلك بربط العلم بالحياه لتكون الدراسة داخل المصنع وداخل المعمل لتتغير بلدنا للأفضل دائما" [٦٤] .

وذلك بأن نخرج من همومنا الذاتية لنحمل هموم الوطن الأكبر، ثم نتخطى الوطن إلى الإنسانية الكبرى، ثم نتخطى الإنسانية إلى الطبيعة وما وراءها، ثم إلى الله الذي جئنا من غيبه المغيب ومصيرنا أن نعود إلى غيبه المغيب [٦٥].

٢- المعرفة الحدسية :

يعد الحدس أحد مصادر تحصيل المعرفة، والمعرفة الحدسية هي المعرفة التي تتم بالمواجهة المباشرة بين الذات المدركة والموضوع المدرك، وإذا كان فريق من العقليين قد استخدموا الحدس العقلي كأداة للمعرفة فإن الصوفية أيضاً قد استخدموا الحدس الذوقي الذي يفضي إلى ضرب من اليقين. وذلك لأن حجة الإسلام هي العقل والمنطق في كل الأوقات فكانا وسيلتنا النبي محمد (ﷺ)،إلى الإقناع وليست المعجزات و لا الخوارق، وإذا كانت هناك معجزة في الموضوع فإنها لم تكن شق بحر أو إحياء ميت أو شفاء أبرص أو إخراج حية من عصا، وإنما كانت المعجزة هي ذات النبي نفسه التي جمعت الكمالات وبلغت في كل كمال ذروته[٦٦].

ولذلك يعد الحدس عند مصطفى محمود رؤية عقلية مباشرة فقد رأينا العلم في أمريكا وأوربا وروسيا .. ماذا يصنع بدون خلق.. ورأينا أنّ الصعود الصعب هو أن تصعد على نفسك وتملك ناصيتها بالحق لا بالباطل، ولهذا تحدث القرآن الكريم عن المؤشر الحقيقي والأزلي للعظمة الإنسانية وهو العظمة الخلقية، وما دام حدس الدين وحدس العلم اتفقا فالقرائن تصبح قوية [٦٧]، فالحدس العقلي كما يراه مصطفى محمود هو قوة البصيرة[٦٨]، أو كما يسميه برجسون "Brigson" هو معرفة العقل للعقل [٦٩].

غير أن مفهوم العلم في الغرب مختلف عن مفهومنا، فعندنا الدين علم لأنه علم بالله والله هو أشرف معلوم، وعندنا لا يصح العلم بدون تقوى ولا يصح بدون خلق؛ فالعلم عندنا وسائله الحواسّ والإستقراء والتحليل العقلي، كما أن وسائله التلقي بالقلب والاستمداد من الله ..

فالله هو المستند النهائي لجميع الحقائق.. وذلك هو العلم اللدني الإشراقي. ولذلك كانت من وسائل العلم عندنا العبادة والطاعة والإستقامة بل هي الوسائل الوحيدة للتعرف على علوم

الغيب المحجوبة، فطاعه الله والتزام منهجه وسيلة إلى مزيد من علم ... وهذا تأسيس على الحقيقة الأولى أن العلم كله من الله ؛ ولهذا كانت العلاقة وثيقة بين العلم والتقوى [٧٠]، فالاسلام أطلق الفكر وفك العقل من عقاله .. وأكثر من هذا اعتبر العقل والحرية .. هما الامانة التى فى عنق كل مسلم .. الأمانة التى قبلها كل البشر منذ العرض الأول الذى عرضه رب العالمين على خلقه ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[٧١] لقد أخذ الإنسان الأمانه وهى أمانة عقله وحريته وقبلها على أن يعمل بها ويصونها[٧٢].

فالحدسية عند مصطفى محمود تكمن في المعرفة الحقة وجلاء البصيرة والكشف والعلم الحق، فالعلم بالله هو وحده العلم وهو الباب إلي التخلق والتحقق بمكارم الأخلاق، و لا وصول لأي قيمة بدون هذا النور الإيماني وبدون هذا النور.. سيظل العالم يتخبط في ظلمات وحروب وصراعات بلا نهاية [٧٣].

ومما سبق يتضح للباحثة أن مصطفى محمود أكد على أن العقل يعد من أهم مصادر اكتساب وتحصيل المعرفة، فهو أداة منظمة ومرتبه لما يجمعه الإنسان بحواسه من مدركات مختلفة، ولا يقف عند هذا الحد بل إنه قد يلجأ إلى فكرة العقل الفعال والمعرفة الإشراقية. والحق أن هذه المعرفة ليست كل شيء عند مصطفى محمود على الرغم من أهميتها الكبرى كأسلوب من أساليب التفكير؛ غير أنه يؤكد بأن الإنسان ما أن يهديه الله لها فإنها تصبح له كل شيء في تفكيره .

٤- المعرفة الإشراقية :

يوضح مصطفى محمود أن الفلسفة الإشراقية تقوم في مقابل المشائية، فبينما تقوم الثانية على البحث والحجج العقلية المنطقية تقوم الأولى على الكشف والذوق الصوفي .. والعلم في الفلسفة الإشرافية لا يأتي عن طريق التجريد أو تمثل صورة الموضوع في الذهن، بل هو علم لا يزيد شيئاً على الذات العارفة[٧٤].

ولذلك فالمعرفة تقوم على الحدس الذي يربط الذات العارفة بالجواهر النورانية صعوداً ونزولاً، وتسمى العلم الحضوري أو الإتصال الشهودي فالمعرفة الإشراقية أو (الزوقية) هنا كل معرفة لم تأت بالطريق الواقعي المعهود الذي يبدأ بالحسي للوصول إلى العقلي، أو بالجزئي للوصول إلى الكلي، وإنما تلك المعرفة الناجمة عن مصدر إلهي؛ سواء كان ذلك فيضاً من العقل الفعال أو نوراً يقذفه الله في قلوب أوليائه، فيدركون الحقائق والكليات مباشرة ودونما وساطة من الحس والعقل [٧٥]. و لقد تناول الإسلام الطبيعة الإنسانية بفلسفة تربوية نابعة من خطاب قرآني وسنة نبوية، والملاحظ أن الإسلام اهتم في توجهه التربوي بالفرد ثم حاول ضبط هذا الكائن داخل الفئة الاجتماعية، وهذه الأخيرة تعتبر جزءًا من الأمة عامة، وإذا تأملنا القرآن فإننا نلاحظ تركيزه على مسألة المعرفة على اعتبار أنها جزء أساسي من الطبيعة الانسانية وهي: معرفة الله/ معرفة النفس/ معرفة الكون/ معرفة الجنة والنار. ومصدر هذه المعرفة كتاب ناطق وخبر مجتمع عليه (السنة) [٧٦].

فالقضية عند مصطفى محمود بالدرجة الأولى قضية ايمان، هي قضية رؤية.. كيف نرى العالم..؟ و كيف ننظر فيما حولنا..؟ و كيف نحب..؟ هل نستطيع أن نكون ذلك العارف الذي لا يرى في كل شيء إلا الواحد.. و لا يبصر إلا وجه ربه في كل محبوب. هل يمكن أن نكون مصداق الآية ﴿أَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ﴾[٧٧].

تلك هي الفلسفة التي مر بها تطور مصطفى محمود الفكري والذي جعل له رؤية انفرد بها عن غيره من الفلاسفة والمفكرين من عصره، و في هذا الإطار نحب و في هذا الإطار نكره.. فنبذل المروءة و المعروف و المودة للجميع و لا يكون لنا تعلق و لا يكون لنا حب إلا الله و بالله و في الله. ذلك هو الجهاد الصعب. و لا اختيار.. و لا طريق آخر، و كل واحد و عزمه، و كل واحد و همته.. و عبرة كل حياة بختامها.. فلنسارع إلى المجاهدة و لنشمر السواعد حتى لا يكون محصول حياتنا صفراً و حتى لا يمضي بنا كل يوم إلى نقصان، و حتى لا يصبح كل يوم من أيامنا مطروحا من الذي قبله، انما خلق الله الغواية لامتحان القلوب و ليعرف الكبار أنفسهم و ليعرف الصغار أنفسهم من البداية... [٧٨].

الفرق بين العلم والمعرفة الإشراقية :

يرى مصطفى محمود أن المعرفة أعلى من العلم، والوقفة نهاية في المعرفة، بينما يرى ابن عربي أن العلم أرقى من المعرفة، ونحن نتكلم عن العلم بالله، والمعرفة بالله، دون العلم والمعارف الأخرى، ويرى ابن عربي أيضا أن اسم " عالم " الذي سمَّانا الله به أولى من اسم " عارف "، وأن العارف دون العالم، والله ما سمى العابد عارفاً إلا من كان حظّه البكاء من الأحوال، ومن المقامات الإيمان بالسماع لا بشهود الأعيان، ومن الأعمال الرغبة إليه سبحانه والطمع في اللحوق بالصالحين قال تعالى ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ(٧٩)﴾ ولم يقل علموا فوصفهم بالمعرفة،وفي آخر الآيه ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ(٨٠)﴾ فسماعهم ليس من أنفسهم وأن الله سبحانه وتعالى أثابهم ؛ والصديقية فوق هاتين الصفتين اللتين طلبهما العارف، فالعارف يعمل على تحصيل الأجر والثواب، والله بَّرأ الصدّيقين من طلب الأعواض وطلب الثواب لأنهم يعلمون أن أفعالهم ليس لهم فلا يقوم بهم خاطر لطلب العوض فلنعلم الأدب، فعلم الأسماء عظيم، وانظر بعين البصيرة أدب الرسول (ﷺ أين جعل العارف، حيث جعله الحق فقال (ﷺ) " من عرف نفسه عرف ربه " ولم يقل علم ربه .

وقد جرى د. مصطفى محمود على مجرى أهل الله، وأطلق على صاحب المقامات والعلوم اللدنية اسم عارف، وهو مصيب في ذلك، فلا يعترض أحد على كلامه؛ حيث اعتبر العلم هو مطيه ودابة تركبها لهدفك والخطر كل الخطر أن تركبك هي وتقودك هي وتجعل من نفسها هدفاً لك، والعلم لا يصلح هدفاً (فهو مجرد تحصيل المعلومات الجزئية عن الأشياء وروابطها وعلاقتها) وذاك هدف المحجوبين من العلماء الذين وقفت همتهم عند إدراك الأشياء وعلاقاتها، وهم الذين قال عنهم القرآن ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٨١)﴾.

أما أصحاب الهمم العالية فالعلم عندهم وسيلة إلى غاية أُخرى هى المعرفة؛ فالمعرفة عندهم غير العلم، فالعلم تنتهي حدوده عند إدراك الجزيئات والمقادير والعلاقات بين الأشياء والقوانين التى تربطها، ومنتهى العلم أن نكتشف أن جميع الأشياء الحي منها والميت مخلوقة من خامة واحدة ومركبة بخلطة واحدة. ويخرج العلم بعد ذلك إلى مرحلة جديدة يسميها البعض

"معرفة"، ويفرقون فيها بين العلم والمعرفة حيث إن العلم يبحث في الكون، والمعرفة بحث في المكون...العلم يبحث في الأشياء المتعددة، المعرفة تبحث في الواحد ... العلم يبحث في المادي، المعرفة تبحث في الغيبي...ولهذا كانت وسائل العلم (المسطرة والبرجل والمجهر والتلسكوب والحواس الخمسة والتحليل العقلي) أما وسائل المعرفة الإشراقية فهي (القلب والبصيرة والوجدان الصوفي) و لذلك فإن الحقيقة المؤكدة التي يقولها العلم أن هناك وحدة في الخامة لا أكثر .. وحدة في النسيج و السنن الأولية و القوانين .. وحدة في المادة الأولية التي بني منها كل شيء(٨٢).

وهذا ما أكد عليه مصطفى محمود وذلك بأنه لا يمكن البدء في رحلة المعرفة إلا بالخروج من قطار العلم وقيوده وضوابطه من عقل ومنطق وحواس وأدوات مادية، وهذا يستلزم التجرد من العالم المادي كله؛ ولكن العالم المادي هو معشوق النفس ومجالها .. وما العقل والمنطق والعلم إلا خدام النفس ومطاياها للتسلط على هذا العالم المادي وحيازه وامتلاكه وتكريسه لإشباع أهواء النفس وملذاتها .

وأن لا خروج من العقل والمنطق ولا خروج من أسر الحواس ولا خروج من سيطرة العالم المادي إلا بالتجرد عن النفس وهزيمتها وقمعها وإخضاعها وتكميمها وإسكات رغباتها، وهو ما يسمية النفري بالخروج من النفس أو عبور النفس وتجاوزها ويلخص هذا العبور في كلمات قليلة بليغة . " اخرج عن نفسك عن همك اخرج عن علمك اخرج عن عملك اخرج عن اسمك اخرج عن كل ما بدا " أي من ظواهر الكون المادي كله"؛ وماذا بعد ذلك... يكون مطلوبك هو الله .. وهمك هو الله .. وذكرك هو الله ..ونطقك هو الله ..وفكرك هو الله(٨٣) .

ويؤكد مصطفى محمود على أنه بدون سلوك لا توجد معرفة ولابد من العمل بما تعلم ليعطيك الله علم ما لا تعلم، وأقرب الطرق إلى معرفة الله هو معرفة النفس الإنسانية (٨٤) ، وأن حياة البشر تقوم على ماديات ومعنويات، والمعرفة يجب أن تشمل الجزأين معاً المادة والروح، فالمعرفة وسيلة البشرية التي لا تملك غيرها فانني أحب طرائق العلم، لكنني أخشى نتائج العلم ولعل عقل العلم لا يكفي ولابد من إدراك الجمال والروح ويتم ذلك بالعودة إلى القلب (٨٥).

كما أشار محمود بأنه على الرغم من تعدد الوسائل التي يتم من خلالها التعليم إلا أن هناك وسيلة هي أساس العلم وهي أن الله قد علمنا بعض وسائل العلم الذي أراد لنا أن نتقدم فيه ومن هذه الوسائل قائمة على مبدأ السببية فهو تعالى وإن كانت إرادته هي العليا ويكفي أن يقول للشيء كن فيكون كما جاء في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً [٨٦]﴾[٨٧].

و لهذا فالحرية حقيقة لا تنفيها المقاومات و الظروف الخارجية، بل إن هذه المقاومات تؤكد الحرية فلا يمكن أن تكشف حريتنا عن مدلولها في الخارج إلا بوجود عقبات تزحزحها و تتغلب عليها، إنها تكشف عن مدلولها من خلال صراع و بدون هذا الصراع لا يقوم لها معنى، ويؤكد أيضاً بأن البداهات أصل من أصول المعرفة و مرجع لا يجوز الشك فيه (لأن هذا المرجع شأنه شأن الحياة ذاتها) و كما نأتي إلى الحياة مزودين بعضلات لنتحرك بها و ندافع عن أنفسنا كذلك نولد مزودين بالبداهات الأولى لنحتكم إليها في إدراك الحق من الباطل و الصواب من الخطأ، و أعلى درجات المعرفة هي ما يأتيك من داخلك ، فأنت تستطيع أن تدرك وضعك (هل أنت واقف أو جالس أو راقد) دون أن تنظر إلى نفسك، يأتيك هذا الإدراك و أنت مغمض العينين، و تقوم هذه المعرفة حجة على أية مشاهدة . و حينما تقول أنا سعيد، أنا شقيّ، أنا أتألم، فكلامك حجة بالغة و لا يجوز تكذيبه بحجة منطقية، بل إن تناول هذا الأمر بالمنطق هو تنطع و لجاجة لا معنى لها .. فلا أحد أعرف بحال نفسك من نفسك ذاتها[٨٨].

بالمثل شهادة الفطرة و حكم البداهة هي حجة على أعلى مستوى، و حينما تقول الفطرة و البداهة مؤيدة بالعلم و الفكر و التأمل، حينما تقول بوجود الروح و النفس و بالحرية و بالمسئولية و المحاسبة، و حينما توحي بالتصرف على أساس أن في الكون نظاماً، فنحن هنا أمام حجة على أعلى مستوى من اليقين .و هو يقين مثل يقين العيان أو أكثر، فالفطرة عضو مثل العين نولد به . و هو يقين أعلى من يقين العلم ؛ لأن الصدق العلمي هو صدق إحصائي والنظريات العلمية تستنتج من متوسطات الأرقام . أما حكم البداهة فله صفة القطع والإطلاق ٢ × ٢ = ٤ هي حقيقة مطلقة صادقة صدقاً مطلقاً، لا يجوز عليها ما يجوز من نسخ و تطور وتغير في نظريات العلم لأنها مقبولة بديهية .

١ + ١ = ٢ مسألة لا تقبل الشك لأنها حقيقة ألقتها إلينا الفطرة من داخلنا و أوحت بها البداهة، وهي معرفة أولى جاءت إلينا مع شهادة الميلاد، ولو أدرك الإنسان هذا لأراح و استراح و لوفّر على نفسه كثيراً من الجدل و الشقشقة و السفسطة و المكابرة في مسألة الروح و الجسد و العقل و المخ و الحرية و الجبر و المسئولية و الحساب و لاكتفى بالإصغاء إلى ما تهمس به فطرته و ما يفتي به قلبه و ما تشير به بصيرته[٨٩].

ملامح المعرفة الإشراقية عند مصطفى محمود :

بدأت ملامح المعرفة الإشراقية لدى مصطفى محمود تظهر من خلال بعض التساؤلات التي يفتتح بها بعض كتبه مثل " السر الاعظم "، حيث يخاطب فى هذا الكتاب القارىء المؤمن الذى لم يكتف بأن يعرف أن الله موجود وإنما يريد أن يعرف هذا الرب، ويستجلى أسراره .. من هو ؟ ولماذا خلق ما خلق ؟ وما حقيقة العلاقة بين الحق والخلق، وبين العبد والرب ؟ .. ويستضيء مفكرنا فى بحثه بأقوال أقطاب المتصوفين من أهل الكشف والفتوحات، من أمثال ابن عربى والغزالى والنفرى والجيلى وأبى العزايم[٩٠]

غير أن مصطفى محمود طالعنا بمقال آخر فيه بعض اجتهادات فى فهم سر الحياة وفى تنزيل هذا الفهم على بعض الآيات الكريمة .. وتفسيره لها تفسيرا يشبه إلى حد كبير التفاسير الرمزية الخاصة التى ذهب اليها بعض المتصوفة وغيرهم من الباطنية والتى جاءت فى بعض كتب التفسير .. وهى أشبه ما تكون بتفاسير خاصة تدركها وربما تقبلها جماعة خاصة من أمثالهم، وهذه التفاسير كثيرا ما تكون مرفوضة ممن يعمدون إلى تفسير القرآن الكريم حسب لفظة العربى وما يؤديه هذا اللفظ العربى مع السياق وسبب النزول من معان نتفق فى تفصيلها وفى جملتها أيضا مع السياق العام للقرآن ولا تتصادم مع نص فيه ولا قاعدة تقوم عليه [٩١].

ويتضح عالم مصطفى محمود من خلال المنهج الذى رسمه لنفسه، واختتمه " بالعلم والإيمان " ذلك البرنامج الذي يتحدث فيه عن العلم والفلسفة والتصوف ، وعلاقتهم " بالأدب والفن ، أو الإنسان" ، و القصة القصيرة و " ادب الرحلات "– الغاية – الصحراء ، وأخيرا : رحلة الرحلات أو أدب الاخرة : الطريق إلى الكعبة – رأيت الله – سدرة المنتهى، ونستطيع أن نتوصل بأن فكر مصطفى محمود ماهو إلا كائن حى له يدأن، يسراه العلم، ويمناه الفلسفة، أما التصوف فهو قلب الطائر الخفاق الذي يدله على الفطرة[٩٢].

ب) علاقة المعرفة الإشراقية بالتصوف :

ظهرت المعرفة الإشراقية عند مصطفى محمود في الجدل الصاعد حوله، فكلما اتسعت معلومات المرء الدينية والفلسفية اقترب من العالم العلوي، ودنت روحه من مستوى العقول التي تملك القدرة على صفاء الروح وابعاد نفسها عن ضغوط الواقع والحياة . وبذلك تتسع حدود التجربة الحسية وتصير معرفة عقلية ومن هنا ارتبط التصوف والإشراق عند مصطفى محمود بعلم النفس ونظرية المعرفة – بل ارتبط بالنظريات الفلكية والميتافيزيقا في برنامجه العلم والإيمان .. وسوف نتناوله لاحقاً في هذه الدراسة بالتحليل الموضوعي.

وظهرت صلة مصطفى محمود بالمعرفة الإشراقية عامة وبالتصوف خاصة بقراءة كتب العارفين بالله، أمثال ابن عربي والنفَّري وابن عطاء الله السكندري، وأبي حامد الغزالي، وغيرهم ثم أخذ العهد من الشيخ محمد منذور النقشبندي في مكة حين سافر للسعودية عام ١٩٦٦ وقد أخذها تبركاً وليس سلوكاً عندما سمع أن الشيخ محمد متولي الشعراوي أخذ العهد من الشيخ محمد منذور النقشبندي، وأنه أصبح أي الشعراوي أكبر داعية إسلامي بمصر. وقد وجد مصطفى محمود أن الطريقة النقشبندية هي أنسب الطرق لأن مدارها على الذكر القلبي وأورادها وأحزابها قليله ومشاغله الدنيوية كثيرة جدا؛ إلا أن ذلك لم يمنعه من صحبه الشيخ محمد منذور لمدة ست سنوات زاره في مكه من وقت لآخر، إلا أن مفكرنا يؤكد بأن لديه شيوخ مستورون تتلمذ على أيديهم من خلال كتبهم كحاله من"الوجدانية والروحية"،مثل تأثره الكبير بالنفري وكتابه(المواقف والمخاطبات)، وابن عربي وكتابه الفتوحات، وابن عطاء السكندري، وكذلك الإمام أبي حامد الغزالي وكتابه (الأحياء)، وابن مكزون السنجاري "صوفي شيعي عراقي" معتدل من خلال كتابه عن السلوك الصوفي [٩٣].

غير أن مصطفى محمود لم يتأثر بأي طريقة من الطرق الصوفية، وإنما كان يرى الفكر الإشراقي الطريقة العزمية أكثرهم حدساً وفهما للطبيعة الإنسانية، ويؤكد بقوله أنه يوجد بعض الطرق تسير على منهج مستقيم، مثل الطريقة التفتازانية لمعرفته الشخصية بالعالم والعارف الكبير الملتزم بالكتاب والسنة أبو الوفا التفتازاني[٩٤] .

وتعتقد الباحثة بأن أهم ما يجمع مفكرنا بكل هؤلاء المتصوفة وأصحاب الإشراق هو " المعرفة الذوقية " و" فكرة الإتصال " فنظرية الإشراق عند مفكرنا تفصح عن ملامح صوفية لا مجال لإنكارها في كتبه ومقالاته شرط أن نسلم بأن التصوف لا يتضمن حتمية الإتحاد بين العقل البشري والعقل الفعال. إذ أن الإتصال بمجرده في تجربة صوفية، ويترتب على ذلك أن المعرفة الإنسانية عند مصطفى محمود مستمدة من كل هؤلاء العظماء يحصلها العقل باجتهاده في الواقع و تتجلى في صورة هبه من الله سبحانه وتعالي ولا تأتي إلا بمزيد من التأمل والبحث وتصفية النفس، وكل ذلك اجتهاد للعقل في الواقع يصبح بعده مهيئاً لتلقي المعرفة الفيضية إن اجيز التعبير، وهذا ما دعا بعض الكتاب والنقاد إلى عد مفكرنا ضمن أصحاب التصوف الفلسفي الذي يعمد أصحابه إلى مزج أذواقهم بأنظارهم العقلية مستخدمين في التعبير عنه مصطلحات فلسفية و لإعتبار رأيه في المعرفة نتيجة مصادر متعدده تكمن في التأمل والبحث والعلم الإيماني .

وهذا هو الإطار الأبستمولوجي الذي استمد منه مفكرنا معرفته، وقد لاحظ كثير من النقاد أيضاً أن تصوف مصطفى محمود عقلي صرف أحياناً أو نظري يقوم على المعرفة والتأمل، ويبني على الدراسة والبحث قبل كل شيء فبالعلم، والعلم وحده تقريباً نصل إلى السعادة، أما العمل فبالمرتبة الثانية . ومهمته محدودة للغاية، وعلى عكس هذا يقرر مصطفى محمود بأن العلم والعمل والإيمان هما بوصله الإنسان في الحياة [٩٥].

ج) تطور مؤلفات مصطفى محمود من الشك إلى الإيمان:

تطور فكر وكتابات مصطفى محمود حيث وصلت من مرحله البحث في ذوات الأشياء المادية إلي البحث في الذات الداخلية للإنسان فقد كان دائما يقول: فى بحر الصوفية الإسلامية أجد جميع الينابيع وجميع الجداول وكل الأنهار، وأجد الإجابات لكل ما كنت أبحث عنه من مشاكل أزلية . فالله وحدة هو الذى يقضى و يستعمل البشر جميعهم كل على حسب إستعداده .. وقد يقضى بأن يستعمل البشر بعضهم بعضاً ليعاقبهم بذنوبهم .. ولكنه لم يجعل لأحد ألوهية على الكون ولا حاكمية حتى على نفسه .. وأن أعتى الجبارين لا يملك إلا حرية محدودة فى الزمان ومحدودة فى المكان ومحدودة فى القدرة • وأن مشيئة الله سابقة على جميع المشيئات وداخلة فى كل الصفات وهى الغيب الذى لا يستطيع أحد أن يتنبأ به وأن كل منا محاسب بقدر حريته ومكلف على قدر طاقته وحدسه وفطرته.

وإذا كان ما يجرى أمامنا بالحياة الأن قدر فإنه لا أحد يستطيع أن يتأكد بأن ما يحـيط سلاماً أو حرباً،لأن كل ذلك سر و أشبه بمعادلة لا ينكشف منها إلا بعض حدودها والباقى مجرد "س" مجهولة علمنا بها تخمين وحدس وقد لا نصل إلى السبب حرباً كانت أو سلاماً إلا إذا أراد الله ذلك لنا، فالكوارث تحدث بموازين بالغة الحكمة نعرف بعضها ويغيب عنا أكثرها(٩٦).

وهكذا تأتى مرحلة التحول الكامل إلى الإيمان وتتوالى مجموعة من كتب الإسـلاميات: القرآن محاولة لفهم عصرى ــ رحلتي من الشك الى الإيمـان ــ الله ــ محمـد ــ الكعبـة ــ التوراة ــ الشيطان يحكم ــ الروح والجسد ــ حوار مع صديقى الملحد .

ثم بعد ذلك وفى أواخر السبعينات تأتى المرحلة الصوفية وفيها أقدم كتب عن التصوف خالصة أسميها الثلاثية الصوفية هي : (السر الأعظم ــ رأيت الله ــ الوجود والعدم ــ وأيضـا عظماء الدنيا وعظماء الأخرة – و زيارة للجنة والنار)، وهناك أيضا أقـدم أسـرار القـرآن، والقرآن كائن حى،.. ومجموعات قصص: نقطة الغليان، وأناشيد الإثم والبراءة، ومسرحيات مثل الشيطان يسكن فى بيتنا، ومسرحية الطوفان(٩٧).

ويؤكد بقوله من خلال كتبه أن "الدين ليس فيه هذا النوع السلبى من الطيبة، وليس فيـه الاستسلام والخنوع والخضوع والاستكانة والذل، والذين امتدحوا هذه الصفات وظنوها تصـوفا أخطأوا،فهم التصوف أيضا وانحرفوا به عن نقائه الإسلامى، فالتصوف الذي لا ينهض لمقاومة الظلم ليس له من الإسلام نصيب، وإذا كان الاستعمار قد شجع فى الماضـى بعـض الطـرق الصوفية التى تروج للسلبية والضعف والخضوع والاستكانة فإن الكثير من الصوفيين الأُصلاء لم ينخدعوا ومن هؤلاء خرج جيش السنوسية يحارب الاستعمار الفرنسي في الشمال الأفريقـي وقد حمل المصحف فى يد والسيف فى اليد الأخرى" (٩٨).

د) دور المعرفة الإشراقية في حياة وكتابات مصطفى محمود:

إن المعرفة الإشراقية عند مصطفي محمود نابعة من التصوف فهو علـى حـد قولـه "المعرفة الصوفية مشربي" و حينما سئل عن التصوف في كتاباته واستكمل قائلا : أنا لا أضـع نفسي في عداد الصوفية ولست من رجال التصوف، ولا أحسب أني وصلت للكمال النفسي الذي يصل إليه السالك ولا أمتلك الكمالات القلبية والروحية التي يصل إليها العارفون بالله، أنا مجرد

محب للتصوف والصوفية وقارئ لمؤلفات العارفين بالله، فلا أحب أن يكتب عني أنني نموذج للولي المحقق السالك.

ويسترسل مفكرنا قائلاً فأنا عاشق للتصوف وليس أكثر من ذلك. غير أن العوامل المؤثرة في حياة مفكرنا والتي سبق وأن تحدثنا عنها سابقاً وربطها بالبصمات الإشراقية " بأنه تم الاستعانه بها لا معنى لحياة الإنسان ولا قيمة لوجوده إذا اقتصرت حياته على التكرار المتعدد، دون تغيير وتفرد، ودون أن يصل إلى معرفة الله تعالى، وتحقيق العبودية له سبحانه، ونقصد بتعدد التكرار، تشابه الساعات والأيام والسنين،

و تشابه الأفراد من حيث نمطية الحياة، فتكون أنت مثل الآخر لا فرق : ولادة – طفولة – تعليم – مهنه – زواج – إنجاب – أولاد – وأحفاد – ثم الموت عبودية لرغبات الجسد من أكل وشرب ومتع دنيوية زائلة "، وهذه ضرورات لابد منها، بل أصبحت غير متوافرة لأغلب الشباب في تلك الأيام، ونحن لا نقلل من شأن هذه الأمور فهي هيكل وجود الإنسان ولكن الخطر يكمن في الغفلة عن الله، وأن تكون هذه الأشياء هي كل محور الحياة ثم لا شيء بعدها.

وهنا يكمن فكر مصطفى محمود والخبرة التي اكتسبها من الحياة بخروجه من مرحله الشك إلى مرحلة اليقين وهذه هي رسالة مفكرنا لكل شاب..

فبمعرفة الله وحده وصل إلي اليقين الذاتي بأن لا إله إلا الله كما أكد مفكرنا على أن الملل والتكرار الذي يعيشه الناس لا وجود له إلا في العالم المادي، وحتى العالم المادى لا تكرار فيه، فهو من أثر تجليات الله، والله تعالى لا يتجلي مرتين في أقل من الثانية الواحدة وتجلّيه على الإنسان يتغير من نَفْس إلى نفس، يقول فيها الله للعبد انظر إلى قلبك وما يجري فيه من خواطر، تجد أنها تيار سريع جدا من الصور التي لا تستطيع ضبطها لحظة.

وهكذا كل شيء في العالم إذا لم تدركه بالبصر أدركه بالبصيرة قال تعالى ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ [٩٩]﴾، فالخلق الجديد حادث في كل لحظة، ولو طَهّرت قلبك ومحوت منه صور الكون بالذكر والعبادة الشرعية لنزلت فيه الصور النورانية والمعاني والعلوم العرفانية، ووجدته تغييراً وسعادة وابتهاجاً معنوياً أكثر بكثير مما تحلم به وأنت جالس في غرفتك ولوكانت

متراً في متر ستجد أن العالم كله عندك، لأنك نسخة من العالم، كما قال ابن العماد في كتاب كشف الأسرار عن الإمام الدريني :

وفيك سرُّ نسخة الوجود فانظر فأنت أقربُ الشهود (١٠٠).

ولذلك فإننا لا نحتاج إلى ما يكسر الرتابه والملل والفراغ لأنها أمور موجودة في وهمنا، نتيجة غفلتنا وجهلنا، ولكن أين هذا الإنسان ؟ هذا الأمر لا يأتي إلا بعد جهاد شاق، وقتل النفس ألف مرَّة وهو مقام لا يحدث إلا لأفراد معدودين، ولكننا نذكره تحفيزا للهمم وتعريفاً بالحقائق، لعل هذا الكلام يقع في قلب إنسان مستعد لذلك فيعمل به.

غير أن مصطفى محمود وهو يعرض لنا بحار الصوفية وأدب المعرفة الإشراقية حذرنا من التهتك الصوفي حينما أكد أن التراث الصوفي بحر عميق فيه اللآليء والأصداف، ولكن فيه أيضا التماسيح والحيتان فيه حرائر المرجان وفيه المتاهات المهلكة التي لا يعود منها الملاح. والقراءة في التصوف أشبه بالملاحة في بحار الظلمات بقارب شراعي ..

وربما أكثر ما تكسر الدفة ويتحطم المجداف ويفقد السالك إتجاهه، والنور الوحيد الهادي السالك في هذا البحر هو نور الكتاب والسنة .. وبدون الشريعة لا يمكن أن يصل السالك إلى بر الأمان، فالشريعة هي دفة الملاح في هذا البحر .. وهي دليله على ما يأخذ وما يدع فما وافق الشريعة من لغة القوم وعلومهم يأخذ.. وما خالف الشريعة يتركه غير نادم(١٠١).

فما أعمق وأمتع عالم الدكتور مصطفى محمود انه عالم ثري وخصب فهو أشبه بالملاح الذي يعبر ويبحر عبر المحيطات يريد أن يعرف ويعرف ويعرف .. ولكنه في رحلاته الفكرية والأدبية كان دائما متسلحاً بسلاح العلم والمعرفة .. إنه ينشد دائما الوصول إلى واحة المعرفة مهما كان أشواك الطريق .. نرى فيه جسارة الملاح وإرادة المفكر .. وطموحات العالم .. ورغبة الباحث عن الحقيقة .

واستخلاصاً من ذلك يمكننا القول أن مصطفى محمود قد رآى أن المعرفة لا يتم تحصليها إلا بأدوات ومناهج، فالتجربة الإنسانية لا تكتمل إلا بإستخدام العقل والحواس والحدس المعرفي الإشراقي، فليس بالعقل وحده يتعلم الإنسان ويعرف، وليس بالحواس وحدها يستطيع أن يكتسب العلم ويحصل معارفه، وإنما تكتمل المعرفة بالعقل والحواس والحدس الإشراقي .

المراجع

١) حسان محمد حسان وآخرون : **دراسات في فلسفة التربية**، مكتبة القاهرة ، القاهرة، ١٩٨٦، ص ١٣٤.

2) Nelson B.Henry: **Modern Philosophies and Education** "The Fifty Fourth Year Book Of The National Socity For TheStudy Of Education, Part2" Contral Book, Depot, Allahabed, 1970, P. 17.

٣) **المعرفة:** هي علم بعين الشيء مفصلاً عما سواه. وقيل: هي ثمرة التقابل والاتصال بين ذاتٍ مدركةٍ وموضوع مدرك .

٤) حسن حنفي : **دراسات إسلامية في فلسفة التربية**، ط٤، دار التنوير للنشر ، بيروت،١٩٨٩، ص ٣٠١.

٥) رمزي أحمد مصطفى عبد الحي : ***الآراء التربوية عند قاسم أمين***، كليه التربية، جامعة المنوفية، ١٩٨٩ م.، ماجستير غير منشور، ص ٩٤.

٦) **الانطولوجيا** :مبحث الأمور العامة وهي ما لا يختص بقسم من أقسام الموجود التي هي الواجب والجوهر والعرض بل تطلق على الموجود من حيث هو كذلك فتعم جميع الموجودات.،أما **الأبستمولوجيا**:هي دراسة يتعلق غرضها بالعلوم من حيث موضوعاتها ومبادئها وقوانينها وعلاقات بعضها ببعض وتكشف عن أصلها ومداها، وتطلق أيضاً على نظرية المعرفة. المعجم الفلسفي، جمهورية مصر العربية /اصدار مجمع اللغة العربية، ١٩٨٣، باب الألف،ص ١،٨.

٧) منال سمير الرافعي : **مبادئ الفلسفة**، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٦م.،ص ١١١.

٨) مصطفى محمود: الخروج من مستنقع فرويد، ***جريدة الأهرام*** بتاريخ،٣ اغسطس١٩٨٨، رقم المقال ٨٥، ص٣٨٣ .

٩) د.فوقية حسين: **مقالات في أصالة الفكر المسلم**، ط٣، دار الفكر العربي ، القاهرة ،١٩٩٦، ص ١٢٣.

١٠) عبد العزيز شرف:عن د. مصطفى محمود بين أدب الرحلات وأدب الآخرة، ***جريدة الأهرام***، بتاريخ١٤ يناير١٩٨٠، رقم المقال ١١٥، ص١٠٢،١٠١ { رد عن مقال د. مصطفى محمود بنفس الجريدة تحت نفس العنوان }.

١١) مصطفى محمود: هل كان لنا وجود قبل أن نولد؟، *جريدة الأهرام* بتاريخ،١٣اغسطس١٩٧٩، رقم المقال ٦.ص٦٠.

١٢) د. محمد غلاب : **المعرفة عند مفكرين المسلمين**، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر،١٩٦٠، ص٢٢٠، وكذلك د. محمد فتحي الشنيطي : **المعرفة**، القاهرة، مكتبة القاهرة الحديثة، ط٢، ١٩٦٢، ص ٥٦.

١٣) عبد الباسط محمد حسن : **أصول البحث الإجتماعي**، القاهرة، مكتبه وهبة، الطبعة السادسة،١٩٧٧، ص ١٨.

١٤) مصطفى محمود : **الروح والجسد**، القاهرة، دار المعارف،ط٥، ١٩٩٠، ص ٥٠:٥٣.

١٥) المرجع السابق ، ص ٥٠:٥٣.

١٦) المجالس القومية المتخصصة : القيم والسلوكيات في مجال التنشئة الاجتماعية، ***تقرير المجلس القومي للتعليم والبحث العلمي والتكنولوجيا***، المجلد الحادي عشر،١٩٩٠، ص ٣٣٥ .

١٧) عبد الغني عبود، وحسن عبد العال،:**التربية الإسلامية وتحديات العصر**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٠،ص٦٦.

١٨) مصطفى محمود : **كلمة تغني الكثير**، *جريدة الأهرام* بتاريخ،٧ نوفمبر١٩٨٣.، رقم المقال ٤١ ص١٧٨.

١٩) مصطفى محمود : **الجزء والكل**، *جريدة الأهرام* بتاريخ،٩ ابريل١٩٨٤.، رقم المقال ٥٣ ص٢٢٢.

٢٠) سعيد عبد الغفار على الدسوقي: ***المضامين التربوية في كتابات الحكيم الترمذي***، رساله ماجستير، كليه التربية جامعه بنها، فرع الزقازيق، ٢٠٠٣ م، ص ٨٣ .

٢١) مصطفى محمود : **الروح والجسد**، ص ٧٠.

٢٢) مصطفى محمود : **الشيطان يحكم**، دار المعارف، القاهرة،١٩٧٦، ص ٨١.

٢٣) أحمد أبو زيد : الطريق إلى المعرفة، *كتاب العربي(٤٦)*، وزارة الإعلام، الكويت، اكتوبر٢٠٠١، ص٧.

٢٤) مصطفى محمود : **الشيطان يحكم**، ص ٨١.

٢٥) عصام الدين هلال وآخرون : **الحداثة وما بعدها " دراسات في الأصول الفلسفية للتربية"**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٣ ، ص٤٩.

٢٦) محمد عابد الجابري : **مدخل إلى فلسفة العلوم، العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ٣، ١٩٩٤، ص٢٠-٢١.

٢٧) مصطفى محمود : **الجزء والكل**، ص٢٢٢.

٢٨) مصطفى محمود : **الجزء والكل**، ص٢٢٣.

٢٩) مصطفى محمود : **حكاية الحب**، ***جريدة الأهرام***، بتاريخ،٧ مايو ١٩٨٤.، رقم المقال ٥٧ ص٢٤٠.

٣٠) سورة الزلزلة، الآية : ٧،٨ .

٣١) مصطفى محمود : **نقطة من البحر المحيط**، ***جريدة الأهرام***، بتاريخ،١٩ نوفمبر ١٩٨٤.، رقم المقال ٧٣ ص٣١٦.

٣٢) مصطفى محمود: الخروج من مستنقع فرويد، ص٣٨٣ .

٣٣) مصطفى محمود : **الجزء والكل**، ص٢٢٣.

٣٤) مصطفى محمود: هل كانت لنا حياة قبل أن نولد ؟عن د. عبد الصبور شاهين ، ***جريدة الأهرام*** بتاريخ،١٤ سبتمبر ١٩٧٩، رقم المقال ١٧، ص٦٩ .

٣٥) مصطفى محمود: الخروج من مستنقع فرويد، ص٣٨٣ .

٣٦) سورة العلق : الآية ١ .

٣٧) مصطفى محمود: الخروج من مستنقع فرويد، ص٣٨٣ .

٣٨) مصطفى محمود: الحضارة عن طريق الإنتحار، ***جريدة الأهرام*** بتاريخ،٧ مايو ١٩٨٣، رقم المقال ٣١، ص ١٢٣،١٢٤.

٣٩) مصطفى محمود : **الجزء والكل**، ص٢٢٢.

٤٠) مصطفى محمود : **رأيت الله**، ص٤٦.

٤١) مصطفى محمود: الجزء والكل، ***جريدة الأهرام***، بتاريخ،٩ ابريل ١٩٨٤، رقم المقال ٥٣، ص ٢٢٣ .

٤٢) سورة البقرة : الآية: ١١٥.

٤٣) مصطفى محمود: أشد الناس عداوة، *جريدة الأهرام*، بتاريخ،٤سبتمبر١٩٩٩، رقم المقال ٢٧٠، ص ١٧٠٨-١٧٠٩ .

٤٤) مصطفى محمود : **إينشتين والنسبية**، ط٦، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٠، ص ١٦.

٤٥) مصطفى محمود : **لغز الموت**، ص ص ٣٢: ٣٣ .

٤٦) مصطفى محمود : **لغز الموت**، ص ص ٣٣: ٣٧ .

٤٧) مصطفى محمود : **لغز الموت**، ص ص ٣٣: ٣٧ .

٤٨) سورة البقرة : الآية ٣١ : ٣٣ .

٤٩) سورة النحل : الآية : ٧٨ .

٥٠) مصطفى محمود : **اكذوبة اليسار الإسلامي**، ط٢، دار المعارف، القاهرة، د. ت، ص ٤٥.

٥١) مصطفى محمود : **رأيت الله**، ص١٧.

٥٢) مصطفى محمود: البرزخ، *جريدة الأهرام*، بتاريخ،٢٢ ابريل٢٠٠٢، رقم المقال ٣٢٤، ص ٢٠٤٥ .

٥٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/١٤- ١٥ بإسناده إلى يحيى بن معين قال: ذكر أحمد بن حنبل عن يزيد بن هارون، عن حميد الطويل، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي قال: «من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم» ثم قال لأحمد ابن أبي الحواري :صدقت يا أحمد وصدق شيخك.، وقال الشيخ أبو نعيم رحمه الله: ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام، فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي، فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل.ا.هـ.وقد أخرج أبو نعيم في «حلية الأولياء» ٦/١٦٣، والحافظ ابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» ٣٧/٢٣١ عن عبد الواحد بن زيد قال: من عمل بما علم فتح الله له ما لا يعلم .وأخرج ابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» ٤٨/٤١٤ عن الفضيل بن عياض: من عمل بما علم استغنى عما لا يعلم ومن عمل بما علم وفقه الله لما لا يعلم. فالصحيح أنه ليس حديثاً نبوياً شريفاً ولا حديث قدسي وإن اشتهر مع أنّ معناه صحيح لاريب
http://cb.rayaheen.net

٥٤) مصطفى محمود : **اكذوبة اليسار الإسلامي**، ص ٤٦.

٥٥) مصطفى محمود : **رأيت الله**، ص٤٩.

٥٦) مصطفى محمود : **السر الأعظم**، ص ١٢٩.
٥٧) مصطفى محمود : **الله والإنسان**، ص ١٣١.
٥٨) مصطفى محمود : **الخروج من التابوت**، ص ١٢٣.
٥٩) مصطفى محمود : **الروح والجسد**، ص ٥٠:٥٣.
٦٠) مصطفى محمود: أي الأحزاب سوف نختار، ***جريدة الأهرام***، بتاريخ، ٤ ١مايو ١٩٨٤، رقم المقال ٥٨، ص ٢٤٦.
٦١) مصطفى محمود: مجلس الشعب هو المتهم وليس ابن عربى، ***جريدة الأهرام***، بتاريخ، ٤ يناير ١٩٧٩، رقم المقال ١٣، ص ٤٩.
٦٢) مصطفى محمود : **إينشتين والنسبية**، ص ١٦.
٦٣) عبد العزيز شرف : بين أدب الرحلات وأدب الآخرة، ***جريدة الأهرام*** { رد عن مقال د. مصطفى محمود بنفس الجريدة تحت نفس العنوان }، ص ١٠١.
٦٤) مصطفى محمود: البروسترويكا .. والعالم الاسلامى، ***جريدة الأهرام*** بتاريخ، ٢ ابريل ١٩٩٠، رقم المقال ٩٣، ص ٤١٧.
٦٥) مصطفى محمود : **الروح والجسد**، ص ٨٢ .
٦٦) مصطفى محمود : **محمد** (ﷺ- **محاولة لفهم السيرة النبوية** ، ط١٠، القاهرة، دار المعارف، ١٩٩٧، ص ١٤.
٦٧) مصطفى محمود : **هل هو عصر الجنون**، ص ٤٧.
٦٨) مصطفى محمود : **من أسرار القرآن**، ص٦٥،٦٤ .
٦٩) محمد على أبو ريان: **الفلسفة ومباحثها مع ترجمة المدخل إلى الميتافيزيقا**، ط١٠، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٥،ص١٩٩.
٧٠) مصطفى محمود : **اكذوبة اليسار الإسلامي**، ص ٤٦.
٧١) سورة الأحزاب : الآية : ٧٢ .
٧٢) مصطفى محمود: استعمال الإسلام لهدم الإسلام، ***جريدة الأهرام*** بتاريخ، ١٩ سبتمبر، ١٩٩٥، رقم المقال ١٨١، ص ١٠٨١.
٧٣) مصطفى محمود: الذين يتشدقون بحقوق الإنسان، ص ١٦٣٢.
٧٤) مصطفى محمود : **الوجود والعدم**، ص ص ٦٠،٥٩ .

٧٥) د. إبراهيم عاتي: **الإنسان في الفلسفة الإسلامية**، القاهرة، مكتبة الأسرة – مهرجان القراءة للجميع، مطابع الهيئة العامة للكتاب،٢٠٠٥.ص١٨٣.
٧٦) ملاك المصطفى : **الطبيعة الانسانية في التصور الاسلامي**، تم الدخول بتاريخ ٧ اغسطس ٢٠١٠، http://www.bab.com/articles/full_article.cfm?id=7610
٧٧) سورة البقرة الآية : ١١٥ .
٧٨) مصطفى محمود : **أناشيد الإثم والبراءة**، ص ٥٧ .
٧٩) سورة المائدة، الآية : ٨٣.
٨٠) سورة المائدة، الآية : ٨٥.
٨١) سورة الروم، الآية : ٧.
٨٢) مصطفى محمود : **رحلتي من الشك الي الايمان**، ص٨
٨٣) مصطفى محمود : **رأيت الله**، ص١٥٠.
٨٤) .مصطفى محمود : **الوجود والعدم**، ص٦٣.
٨٥) مصطفى محمود : دفتر الجيب " توفيق الحكيم"، ***جريدة الأهرام*** بتاريخ،٢٧ يناير ١٩٨٦،رقم المقال ٢٠٩،ص٧.
٨٦) سورة الإسراء، الآية : ١٦.
٨٧) توفيق الحكيم : دفتر الجيب، ***جريدة الأهرام*** ، ص٨ .
٨٨) مصطفى محمود : **القرآن لمحاولة فهم عصري**،ص١٦.
٨٩) مصطفى محمود : **رحلتي من الشك الي الايمان**، ،ص٢٤.
٩٠) مصطفى محمود: كتاب قرأته في" السر الأعظم" ، ***جريدة الأهرام*** بتاريخ،٢٥ يونيو١٩٧٦، رقم المقال ١٩، ص٢١.
٩١) مصطفى محمود:هل كانت لنا حياة قبل أن نولد؟" الحياة واجتهادات التصوف" ، ***جريدة الأهرام*** بتاريخ،٣٠اغسطس١٩٧٩، رقم المقال ١٩، ص٧٦.
٩٢) مصطفى محمود:أدب الرحلات وأدب الآخرةعن د. عبد العزيز شرف ، ***جريدة الأهرام*** بتاريخ،١٤ يناير ١٩٨٠، رقم المقال ٢٤، ص١٠١.
٩٣) أحمد كمال الجزار: **دكتور محمود والتصوف**، دار اخبار اليوم، القاهرة،١٩٩٩، ص٧٤.
٩٤) المرجع سابق، ص٢٩.

٩٥) مأمون غريب : **مصطفى محمود مفكراً إسلامياً**، دار الفيصل، القاهرة،١٩٨٨، ص ٧٠:٧٦.

٩٦) مصطفى محمود: ماذا بعد صدام، ***جريدة الأهرام*** بتاريخ، ١٠ نوفمبر، ١٩٩٠، رقم المقال ٩٧، ص ١٦٣٢.

٩٧) مصطفى محمود: واجب الكاتب أن يبحث عن الحقيقة، ***جريدة الأهرام*** ،مرجع سابق، ص ١٠٩.

٩٨) مصطفى محمود: الرجل الطيب، ***جريدة الأهرام*** بتاريخ، ٤ يونيو ١٩٨٤، ص ٩١.

٩٩) سورة ق، الآية : ١٥.

١٠٠) مصطفى محمود: **الوجود والعدم**، ، ص ص٤٥-٤٧.

١٠١) مأمون غريب: مرجع سابق، ص٩٥.